# مجلة مجمع اللغة العربية

# النحو العربي والبنوية : اختلافها

## النظري والمنهجي*

للأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح

إن الذي نقصده بالبنوية هو المذهب اللغوي العلمي الذي ظهر في أوربا وأمريكا في بداية القرن العشرين الميلادي وتطور وبلغ أشده في نهاية الأربعينيات. وهو يدعو إلى دراسة اللغة كنظام وكبنية لها وجود سابق لوجود أجزائها ومكوناتها[1] .

وقد عرف جمهور المثقفين العرب في زماننا هذا البنوية الغربية منذ عهد قريب وسبقهم بعض من أوفد إلى أوربا للدراسات العليا في اللغة فاتفق أن كانت البنوية هي السائدة في الجامعات الأوربية أنذاك وذلك على شكل مدارس يستزعم كل مدرسة في كل بلد أستاذ كبير اشتهر ببعض الأفكار في مذهبه البنوى. وقد جاءت هذه البنوية بأفكار علمية، نظرية ومنهجية جديدة، مهمة ومفيدة بالنسبة لما كان متعارفا عليه في الغرب قبل ظهورها. أما بالنسبة لنا ، معشر العرب ، فقد طرح السؤال عن إمكانية الاستفادة مما يوجد في هذا المذهب الجديد، ولاسيَّما ما ثبتت صحته فيه عند جميع العلماء وهو شيء حسن إذ لابد من أن يراجع العلماء نظرياتهم ومناهجهم العلمية كلّما اقتضى الحال؛ لأن سير العلم لا يتوقف عند قوم دون قوم في تاريخ البشرية ، إلا أن ذلك يقتضي أيضا أن نمعن النظر فيما نقول عنه إنه " قد ثبتت صحته " ولا نتسرع في الحكم على ذلك، بل نطيل البحث عما أدى غيرنا إلى الحكم بصحة ما يقوله البنويون أو أكثره .

أما النحو العربي الذي نقصده فهو نحو

---

* ألقي هذا البحث في الجلسة التاسعة عشرة من مؤتمر الدورة الثالثة والستين، يوم الأحد ٢١ من ذي القعدة سنة ١٤١٧هـ، الموافق ٣٠ من مارس ( آذار ) سنة ١٩٩٧م.

(١) Structuralism نقول " بنوي " كما نقول " قروي " و " تربوي "و" طهوي " وغير ذلك.

الخليل وأصحابه، أو ما وصل إليه النحـو في زمانه وزمان سبيوية وفي عهد أتباعهما الكبار. والسبب في ذلـك أنهـم هـم المبدعون للنحو العربي ونظرياته الأصيلـة العميقة ولم يبلغ الذين تلوهم ( بعد القرن الرابع ) من الإبداع والعمق ما بلغـوه إلا بعض الأفذاذ القلائل، مثـل: السـهيلي والرضي الاستراباذي . فهؤلاء وحدهـم يمثلون في اعتقادنا ، أصالة النحو العـربي وروعته .

ولذلك فسنحاول أن نتبيَّن فيما يلـي ما هي الفوارق الجوهرية التي يفترق فيـها النحو العربي عن البنوية، وفي الوقت نفسه ما هي القيمة العلمية لأهم ما اختصـت بإخراجه كل واحدة من هاتين النظريتين . ولابد أن نتبين قبل ذلك ما هي أهم مـا اتفقت فيه البنوية مع النحو العـربي إذ لا يمكن أن تتم المفاضلة بين شـيئين إلا إذا اشتبها ولو بوجه .

## ١–بعض ما يتفق فيه النحو العربي مع اللسانيات البنوية

### أ– إن لكلا العلمين موضوعًا واحدًا هو اللغة في ذاتها

تهتم دراسة اللغة عند النحاة العـرب والبنويين باللغة في ذاتها، ومن حيث هـي أي من حيث كونها أداة للتبليغ أو التعبـير عما يكنه الإنسان، ولا تلتفـت إلى مـا كانت قبل أن تصير إلى ما هي عليـه . فهي دراسة آنية لازمانية ( سـنكرونية لا ديا كرونية على حد تعبير دى سوسـور) فكلاهما يتناول اللغة بالتحليل إلى أجزائها الكبرى والصغرى، وكلاهما يبحث عـن كيفية تركيبها بعضها في بعـض، إلا أن فضل اللسانيات الغربية علـى سـابقاتها يكمن في اهتمامها الكبير الذي أظهرته في القرن التاسع عشر بتحـول اللغـات إلى لغات أخرى عبر الزمان، وذلك لم يتبـادر إلى ذهن القدامى (لأسباب تاريخية محضـة لا لنقص في عقولهم ) [1]. وهو الـذي يسمونه بتطور اللغات ( المرور على أطوار تتحول فيها مثل الكائنات الحية ). وفضل البنوية هـو أنها فتحت الباب من جديد،

(١ )أبدى سيبوية والأخفش بعض الملاحظات القيمة في تحول اللغة عبر الزمان ( انظر كتابنا : علم اللسان العربي وعلم اللسان العام ، المقدمة ). وقد كان للخليل أيضا نظرة دياكرونية في أقوال كثيرة منها اشتقاقه لـ " لن " من " لا" " وأن " وليس " من " " لا" و"أبس".

وعلى أسس علمية جديدة، أيضًا للدراسة الآنية بعد أن غالى التاريخيون بحصرهم الدراسة في الوجهة التاريخية وحدها . وأفضل من هذا هو حملها الباحثين في تاريخ اللغات على أن يتتبعوا تطور بُنَى اللغة لا تطور جزئياتها منفردة.

إلا أن هذا الفضل الكبير جدًّا الذي لا يمكن إنكاره، لابد أن يقترن التنويه به بتنويه ما أخرجه القدامى من العرب وغيرهم من النظريات العميقة وما اكتشفوه من أسرار اللغات فتوارثه الناس، ولكن مشوَّهًا بعد القرن السادس الهجري فيما يخص العرب. وذلك مثل ما قاله العلماء الهنود عن لغتهم المقدسة السنسكريتية، ويقرُّ البنويون إقراراً نزيهًا بفضلهم عليهم، بل ويذهب الكثير منهم إلى أن أفكاراً كثيرة في البنوية قد سبق إليها الهنود [1] . وذلك مثل التمييز الحاسم بين الصوت الدال وتأدياته المختلفة.وهذا الصوت الذي تتألف منه الوحدات الدالة هو عند أفلاطون جنس من الأصوات، فهو عنده كما قال سوسور : كيان مجرد وليس بمادة،وقد ألحت البنوية على ضرورة التمييز بين الصوت كمادة للحرف وبين الوحدة الصوتية التى هي جنس من الأصوات وبالتالى مفهوم ( concept) له مميزاته . وذلك مثل مفهوم الإنسان فهو تصور لمميزاته وقد فصل ذلك أرسطو في كتبه المنطقية. وأفاد الغربيون مما ترجم إلى اللاتينية من كتب النحو العربي، ولا سيما مفهوم العمل الذي أحياه من جديد تشومسكى في أيامنا هذه .

**ب- ينطلق البنويون من واقع اللغة كظاهرة وكذلك النحاة الأولون**

تريد البنوية أن يُعتمد على مجموعة معينة من الخطابات، يدونها اللغويون في عين المكان الذي يعيش فيه، في زمان معين، أصحاب اللغة المراد تحليلها والبحث فيها.وأن يقتصر على هذه المدونة ( Corpus ) هي وحدها، فلا يجسر على تغيير شيء منها، ولا يلجأ إلى ذلك في الاستشهاد بشيء من خطابات الباحث نفسه أو جماعة غير الجماعة المعنية بتلك اللغة .

(١) نقل إلى اللغات الأوربية بعض ماكتبوه في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وبجد نفس التحرج عند النحاة العرب؛ إذ لا يمكن أن يستشهد إلا بما هو ثابت لا يرد وما هو موجود في دواوين العرب التي دوّنها العلماء من الشعر والكلام المنثـــور والأمثال، ولا يلجأ إلى غير ذلك. فكـــل منهم يراعي الواقع كما هو .

ومما يترتب على ذلك هو الاعتمـــاد الأساسي على المشاهدة والسماع لما عنـد العرب مع معاينـــة أحـوال الخطـاب (والشواهد في النحو ما هي إلا معطيـات يستدل بها النحوي ). فكل من النحـــاة والبنويين يجعلون المشاهَد المسموع بالفعل هو مادة البحث والمنطق لكل تحليل، وقـد يحاول النحاة أن يفسروا هـــذا الواقـع بوسائل عقلية، قد لا تعرفها البنوية - كما سنراه - إلا أن الرجوع إلى الســـماع في كل محاولاتهم هو الأساس . أمـا فكـرة المدونة اللغوية المغلقة فهي شيء اختصـت به البنوية [1].

## جـ- دورة التخاطب ( The process of communication) وظواهرها

إن اللغة أداة للتبليغ، وتلك هي أهـــم وظائفها. وتحـــاول البنويـــة أن تتفـــهم الظواهر اللغويـــة بـــاللجوء إلى مبـــدأي الاقتصاد والفرق. أما الاقتصاد فهو ميـــل المتكلم إلى التقليل من الجـــهود العضليـــة والذاكرية، التي يبذلها في عملية التخاطب، وقد لجأ أيضًا النحاة إلى مبدأ الاستخفاف في تفسير ظواهر كثيرة، مثـــل: الحـــذف والإدغام والاختلاس، وتبين لهم أن بعـض الحركات المحدثة للحـــروف إذا تتـــالت استثقلها الناطق، كالخروج من الضـــم إلى الكسر أو ككثرة تتالي الحركات المصوتة، وغير ذلك . أما الفرق فهو ضد ذلـك أي ميل المتكلـــم إلى البيـــان أي إلى تبيـــين أغراضه للمخاطب وتخوفه من أن يلتبـــس كلامه عليه بكثرة الحذف والاختصـــار وغير ذلك .

(١) فهي ترى أن الوصف الموضوعي للغة لا يمكن أن يتم إلا بإغلاق العينّة من المعطيات، وجعلها المادة الوحيدة التي يرجع إليها الباحث في تحليله واستشهاده . فوصفه ، كما يقول البنويون، لا يخص إلا تلك العينة، وهذا في نظرنا هـــو موقف سلبي عقيم إذ يجب على الباحث أن يعتمد على ما جمعه هو، وعلى كل ما جمعه سابقوه ممـــا هـــو ثـــابت بالإجماع. لأن إجماع الباحثين على صحة معطيات بعضهم هو الذي يضمن الموضوعية ( ويجب ألا تغلق المدونات التي تخص اللغات غير المكتسبة بالتلقين إلا بذهاب أصحاب هذه اللغات . انظر فيما يلي):

ويعرف كل واحد ما يعيره النحاة الأولون من أهمية للتخفيف من جهة ولرفع اللبس من جهة أخرى، في تفسير ظواهر القلب والإبدال والإعلال والحذف وغير ذلك .

وهو من أعظم ما أنتجه فكرهم وأهمه بالنسبة إلى التفسير العلمي .

## ٢- أهم ما يوجد من الفوارق بين النحو والبنوية

### - المعيارية والوصفية :

إن هذا الجانب هو أهم كثيرًا من جميع الجوانب التي تخص اللغة؛ لأنه الجانب الذي تكثر فيه الأحكام الخاطئة في زماننا هذا، بل الأوهام الرهيبة عند علماء اللسان سواء منهم الغربيون أو الباحثون العرب .

إن أهم ما تفتخر به البنوية هو مذهبها الوصفي، وتعتبره المذهب الوحيد الذي يستحق أن يوصف بأنه علمي، وتغلو في ذلك أيما غلوّ. ويجب قبل أن نتطرق إلى ذلك أن نذكر أن النزعة الوصفية المغالية تعارض نزعتين في الحقيقة : النزعة إلى الحكم على العبارات بأنها صواب أو خطأ؛ لأنها موافقة أو مخالفة لمعيار اجتماعي ما .

والنزعة الثانية هي محاولة تعليل الظاهرة اللغوية .

أما القول بأن التحليل العلمي للغة يقتضي امتناع الباحث عن التدخل في موضوع بحثه بالحكم على ما يدونه من المعطيات بالصواب أو الخطأ؛ فهو صحيح لا مراء فيه؛ لأن الباحث النزيه لا يحكم على المعطيات إلا بما فيها، لا بما يعجبه فيها أو يعجب فئة قليلة جدًّا من المجتمع . وإن صدر منه هذا فهو تحكم محض وخروج عن العلم .

وعلى هذا فإن النحو العربي - مثل النحو التقليدي الأوربي - لا يكون إلا معياريًّا إذ قد يقول أصحابه في كل مناسبة:

إن هذا حسن، وذاك قبيح. ويكون النحوي - مثل سيبويه - في هذه الأحكام من أبعد الناس عن العلم الموضوعي إذ يفضل - حسب أقوالهم - معيارًا على آخر.

والحق غير هذا الذي يقولونه عن النحـــو العربي ( بالنسبة إلى سيبويه وأصحابـــه ) وذلك لأسباب منها :

١- أن معيار اللغة ظاهرة من الظواهـــر، وهي تخص سلوك الناطق بها، فلا يمكن أن تهدر في البحـــث بدعـــوى أن الحكـــم بالصواب والخطأ تحكم محض. فأين هـــي اللغة التي يقول عنها أصحابها كلـــهم: إن الصواب والخطأ اللغوي سيان عليـــهم ، وأية لغة في الدنيا يخطيء الناطق بها عرضًا في عبارة معينة، فلا يقوِّمـــه أحـــد مـــن أصحابها ؟ وأي لغة في الدنيا يمكـــن أن ينطق فيها الناطق بأي شيء بدالة دون أن يخضع لما تعارف عليه أصحابها ؟

فكيف يمكن أن نكتفـــي بـــالوصف بجانب واحد من اللغة، وهـــو وحدهـــا وكيفية تقابلها بعضها إزاء بعض كمـــا يفعله الوصفيون، وتتـــرك كيفية صياغتها التي تضبطها الضوابط.ولماذا نهدر الوصف للضوابط التي تجعـــل بعـــض العبـــارات صحيحة ، وعبارات أخرى لا تحصى غير صحيحة ؟ وقد وقع هاهنا تخليـــط بـــين الحكم الذاتي الذي يمكن أن يصدر مـــن الباحث وبين الحكـــم الصـــادر مـــن الناطقين باللغة أنفسهم. فالمعيار كظـاهرة يجب الاعتداد به، وهو هـــذا المجمـــوع المنسجم من الضوابط التي يخضـــع لهـــا بالفعل كل الناطقين أو أكثرهم . ومـــن هنا نفهم معنى الكثرة واهتمـــام النحـــاة الكبير بهذا المفهوم وسنرى ذلك فيما يلي:

٢- أن قولهم :" هذا جيِّد، وذاك ردىء " إنما يخص الخروج عن القياس أي الباب لا أي خروج،بل ذلك الذي يكون قليـــلاً جدًّا في اســـتعمال الفصحـــاء [1] وهـــم السليقيون من الناطقين . وهم لا يعتبرونه لحنا أي خروجًا مطلقًا عن العربية.فكل

(١) الفصاحة هنا هي لغوية محضة وهي صفة الناطق الذي يعرف اللغة بالسليقة لا بالتلقين و لم يتأثر ببيئة لغويـــة أخرى غير بيئته. ولا يعقل أن يحاول الباحث وصف لغة أو لهجة معينة، ويعتمد في ذلك على ناطقين لا يتقنـــون هذه اللغة إذ لا يمكن حينئذ أن يمثلوا جماعة الناطقين بها . وقد يختار الباحث أن يصف لغة إقليم معين، أو مدينـــة، أو حي يوجد فيه أكثر من لغة أو لهجة ومتداخلة أحيانا كثيرة، فلا يمكن أن يقول بأنه يصف إحدى هذه اللغات فقط وهي متداخلة مع غيرها.ومفهوم الفصيح عندهم هو قريب جدًّا مما يسميه تشومســـكيو غـــيره : Native speaker

ما أجرى على غير وجهه "(١/٢٧٤)" أو وضع في غير موضعه " (١/٨)" ولم يستعمل أصلاً أو استعمله القليل من الناس، وتركته عامة العرب الموثوق بعربيتهم فإنهم ينعتونه بالقبيح أو الضعيف أو الرديء،وإن كان المستعمل منه جائزا إذ هناك فرق عندهم بين "المستقيم القبيح" على حد تعبير سيبويه ( ١/٨) ) وبين القبيح الذي لا يستقيم أبدًا، ولا يجوز لأنه جمع بين شذوذه عن القياس وعدم وجوده إطلاقا في الاستعمال. (ويكون غالبا نتيجة لعملية قياسية غير سليمة أو شيء سمع من فرد واحد أو أفراد غير موثوق بلغتهم أو برواية ضعيفة) .

وقد يكون في الاستعمال قياسان اثنان (أو أكثر ) فيكون أحدهما الأصل، والآخر فرعًا عليه، مثل: لغة الحجاز في تشبيه "ما " "بليس " ولغة تميم التي تخضع لقياس آخر وهو الأصل ألا وهو الانتماء الأصلي"لما" إلى الحروف لا إلى باب الفعل الناسخ . أما إدراجها في باب النواسخ ( الجامع هنا هو دخولها على المبتدأ والخبر مثل النواسخ ) فليس بأصل إلا أنه وجد بكثرة في الاستعمال. وهذا يفسر أيضًا معنى قول ابن جني أن لغة تميم هنا أقيس (الخصائص ١/١٢٥) أي أقرب إلى القياس الأصلي وقول سيبويه بأن اللغة الحجازية في فكّ الإدغام في الفعل المضاعف نحو : " أُرْدُدْ" هي " اللغة القديمة الجيدة " (٢/٤٢٤) لأنها جاءت على الأصل . وكذلك قوله عن عدم إمالة أهل الحجاز : " الحجازية هي اللغة الأولى القدمى " (٢/٤١) أى هي الأصل إذ الإمالة فرع لأنها تحدث عن سبب معين .

أما الفتح ( عدم الإمالة ) فهو أصل لأنه غير مسبب ( المنظور هنا ليس هو الأصل في الزمان كما يصرح بذلك ابن جني (الخصائص ، ٢٥٦- ١/٢٦٥ ).

وأما ما يوافق القياس،أصليًا كان أم فرعيًا، وكان كثيرًا في الاستعمال فإن سيبويه وأصحابه ينعتونه بأنه"عربي كثير"أو" عربي جيد"(والكتاب مفعم بهذه العبارات) [١] .

(١) وهذا يفسر معنى قوله " جيدة " فى " اردد " فليس ذلك لأنها الأصل بل لأنها لم تخالف قياسًا وكانت كثيرة في الاستعمال. وهذا دليل على أن سيبويه لم يحاول أبدًا أن يفرض لغة أهل الحجاز( أما مفهوم الأصل ومفهوم الفرع فهما من أسس المنهجية العلمية العربية كما سنراه ) .

وفي ذلك درجات ( جيـــد، وأجـود، وكثير، وأكثر، وأعرف) ومهما كان، فإن سيبويه وأصحابـــه لا يعـدّون الكثـير الاستعمال قبيحًا أيًا كان [1] ويقول بـأن "الشواذ كثيرة" (١/٢٧٣) أي الشواذ عن القياس . ويقول" إنما هذا الأقل ( بالنسبة إلى نظائرها ) نوادر تُحفـظ ولا يُقـاس عليها " ( ٢/٢١٦). ومعنى ذلـك أنهـا عربية كثيرة وقد لا يجوز غيرها، إلا أنهـا قليلة في بابها أى بالنسبة إلى نظائرها ، فلا يجوز القياس عليها، وذلك مثل:"استحوذ" و" أغْيل" و" باقل " من "أبْقَلَ " عـوض مبقل وغير ذلك. وبالفعل لم يسمع مـن العرب الموثوق بلغتهم اسْتحَاذ، ومع ذلك لا يجوز أن نقول " استقوم " قياسًا علـى " استحوذ " إذ أكثر ما سُمع من هـذا الباب هو قلب الواو . فالشاذ عن بابه غير الشاذ عن الاستعمال ( استعمال عامـة العرب ). [2]

هذا ويعتقد بعض الباحثين أن كلمة "لغة" في قولهم " لغة تميم " و"لغة أهل الحجاز " " لغة هذيل " تدل عند سـيبويهَ علـى اللهجة بمعناها المحدث أى Dialect، وليس الأمر كذلك. فإن سيبويه يريـد بهـذا اللفظ:الاستعمال اللغوى الخاص بجـزء أو عنصر واحد من اللسان يُسْمَع إما مـن جميع العرب أو أكثرهم،مثل قوله :"وذلك لغة جميع العرب إلاّ أهل الحجاز " ( كسر حرف المضارعة ) ( ٢/٢٥٦) و " إنهـا لغة كثيرة في العرب " ( ١/٣١٦) وإمـا من جماعة معينة وذلك كلغة هذيـل في جمع المعتلّ العين من فَعْلة بفتـح العـين، وإعمال أهل الحجاز " ما " وعدم الهمـز عندهم. فهذه كلها كيفيـات في الأداء كلها جزئية، ولا تدل كلمة لغة فيها أبـدًا على لهجة بأكملها. والدليل على ذلـك قول الكتاب: " ذيت ففيها ثلاث لغـات ... (٢/٤٨) ". وأمـا مَعْدِ يكربِ ففيه

---

(١) وقد يكون قبيحًا في الكلام المنثور فقط، وغير قبيح في الشعر كما هو معروف لمجيئه في هذا بكثرة دون ذاك. وهذا أيضًا دليل على أن العلماء القدامى لم يخلطوا أبدًا بين النثر والشعر .

(٢)كل ذلك تناوله العلماء بالتفسير والتوضيح بكيفية رائعة، وتوسع فيه ابن جني كما هو معروف. وقد استغلق هذا على الكثير من المتأخرين .

لغات " (٢/٥٠) أي فيه عدة كيفيات في استعمال العرب لها ولا يمكن أن تقوم كلمة " لهجة " مقامها هنا. فالكيفية الخاصة بجزء من اللسان ليست هي اللهجة كلها . وهذا الوهم هو سبب الأحكام الخاطئة التي يحكم بها بعض الباحثين على أقوال سيبويه وأصحابه . وقد ساعد ذلك أيضًا على تبني فكرة المستشرقين التي تجعل من الفصحى اللغة المشتركة الأدبية ( Koiné ) ومميّزها عن " لغات العرب " التي هي عندهم لهجات مغايرة في الاستعمال للغة المشتركة. ومع ذلك فلم ينصّ أحد من العلماء الذين شافهوا العرب الفصحاء على وجود لسان مشترك خارج عن " لغات العرب " بل أكدوا في كل مناسبة أن هذه اللغات هي أوجه من وجوه العربية (Variants) أي تنوّع محلي أو قَبَليّ في استعمالهم للعربية الفصيحة ( المقابلة للعامية) [1]. وأكبر دليل على ذلك هو وجود " لغات العرب " أي تلك الاستعمالات الخاصة ببعض الأقاليم بكثرة في النصوص التي تعتبر أنها جاءت باللغة المشتركة الأدبية، وهي القرآن والشعر [2].

ويمكن أن أقول في الأخير: إن المعيار اللغوي بالنسبة للعربية هو عند النحاة الأولين مجموع الأنماط والموضوعات اللغوية والأساليب الكلامية، التي كان يستعملها عامة العرب الذين وصفوا بالفصاحة . وأما أن تكون هذه الأنماط قد تغيرت مع الزمان ( من أقدم الشعراء

(١)فكيف نترك شهادة العشرات من العلماء – وفيهم الألمعي العبقري – الذين عاشوا في وسط العرب السليقيين، ونقيس وضعهم اللغوي على الوضع اللغوي اليوناني القديم، أو نقيسه على الوضع الخاص باللهجات العامية قديمًا وحديثًا وقد صارت العربية بالنسبة لها لا يحصل عليها إلا بالتلقين ؟ ونعجب من موقف من اطلع على كتب القدامى جيّدا ويحمّل جميع هؤلاء العلماء هذه الغفلة الفظيعة : أن يكونوا غفلوا عن وجود لغة مشتركة منفصلة عن " لغات العرب " مثل ما كان موجودًا وما يزال موجودًا بين العاميات والفصحى ويتهمهم بالتالي بالتخليط بينها في وصفهم للعربية وما يعدونه لهجات منفصلة عنها . أما أن يكون أسلوب القرآن والشعر مغايرًا لأسلوب التخاطب اليومي، فهذا راجع إلى التفنن اللغوي وكيفية استعمال اللغة، لا إلى اللغة في كيانها الذاتي، ومن ذلك الاستعمال المعجز للغة في القرآن .

(٢)وإن شك شاكٌّ في صحة وجود هذه " اللغات " في القرآن والشعر فكأنه يكذّب جميع القراء وكل النحاة واللغويين ، معاذ الله . ( يمكن أن يرجع فيما يخص معاني كلمة " لغة " إلى ما كتبناه في مقال "لغة" في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة ، ليدن ) .

الجاهليين إلى نهاية القرن الرابع)، وتنوعت بحسب الأماكن، فهذا مما لا شك فيه إلا أنها تكون مع ذلك لغة واحدة في مُجملها؛ لأنها مكّنت العربي السليقي الذي عاش في القرن الثاني أو الثالث من فهم ما يقوله الشاعر الجاهلي، وأن يفهم ما يقوله من كان يتنمى إلى قبيلة أخرى في مختلف أماكن الجزيرة العربية، اللهم إلا في بعض ما هو خاص بالجاهلية أو بالقبيلة المعنية، أو خاص بخطاب معيّن له قصد معيّن مثل ما جاء في القرآن من الألفاظ التي أحدثها الإسلام . أو ما طرأ من لفظ مُحدَث فصيح، وغير ذلك . واعتمادهم على أغلبية الناطقين ( عامة العرب / أكثرهم ) الفصحاء مع احترامهم لما يكون أقل من ذلك، ولا يخالف النمط بجعل هذا المعيار موضوعيًّا؛ لأن اتساع رُقعة الاستعمال بالنسبة للغة الواحدة هو الذي يضمن هذه الموضوعية، وقد أظهر سيبويه وأصحابه تحرّجًا عظيمًا في ذلك، وأمثل عبارة قالوها في ذلك هي :"ولو قالت العرب : اضرب أي أفضل لقلته ولم يكن بد من متابعتهم " ( ١/٣٩٨) وهذه الأخرى:" فهذا أقوى من أن أحدث شيئًا لم تتكلم به العرب ( ٢/٨٩) وغير ذلك كثير .

**٣- اختلاف النظرة إلى اللغة وما يترتب على ذلك من اختلاف في مناهج البحث**

**أ)مذهب الوظيفية في البنوية الأوربية[1]:**

اللغة وليدة وظيفتها البيانية

**-الوظيفة البيانية :**

تحدّد الوظيفيةُ اللغةَ وأبنيتها، كما هو معروف، بوظيفتها ليس إلا.وهذه الوظيفة عندها التبليغ والبيان ( Communication)؛ فكل عنصر أو صفة لعنصر يساهم في تأدية هذه الوظيفة يجب أن يدخل في اعتبار الباحث اللغوي، وما لا دور له في ذلك فليس من ميدان البحث اللغوي؛ لأنه لا دخل له في عملية التبليغ، وإن كان له دور آخر مهم . فما له سهم في ذلك يسمونه: Relevant و ( Pertinent بالفرنسية) أي المعتبر في التحليل أو المعتبر

(١)وأهم ممثل لهذه النزعة ، حلقة براغ المشهورة ومارتينو . أما Hjelmslev الدانمركي فله نظرية صورية خاصة .

وظيفيًّا Fonctional أو الذي له دلالة كما يقول النحاة العرب . ويعثر البـــاحث في الخطاب على معلومات كثيرة لا تُحصـــى لا تأثير لها في تأدية المعنى وهذا هو الـــذي يتركه اللغوي [1] لغيره من الباحثين غـــير اللغويين .

هذا كله صحيح إلا أن اللغة لا يمكـــن أن تحصر كلها في وظيفة التبليغ؛ إذ قـــد تصلح لأشياء كثيرة غير التبليـــغ وذلـــك كالتحليل للواقع (منـــه اللغـــة نفســـها) والتأثير على المخاطب، وحمله على فعـــل معين وما يتعلق بالمنولوج، وما يحدث مـــن كلام النفس، وغير ذلك كثير ثم إن هـــذه الوظيفة البيانية هي عنـــد الوظيفيـــين في الحقيقة ، وظيفة العناصر اللفظية في التمييز بين معاني الكلام إذ المبدأ عندهم هـــو أن يتم تمايز المعاني بتمايز الألفاظ. وهـــذا صحيح فلولا تباين الألفاظ لمـــا حصـــل البيان عن المعاني إلا أن اللغة لا ينحصـــر فيها التباين إلا بتباين عناصرها في ذاتها [2] فهنا، علامات وأدلة في اللغة يمكـــن أن يرتفع بها اللبس إذا اتحـــدت الألفـــاظ، وذلك كالســـياق عامـــة، وكعلامـــات الإعراب، وكاختصاص الاسم بدخـــول حروف الجر عليه والوصـــف والإضافـــة وغيرها، واختصاص الفعل بدخول بعـــض الأدوات عليه وغير ذلك . ولهذا لا يجـــد المخاطب صعوبة في فـــهم الكثـــير مـــن المشترك والمرادف . أما ظاهرتا الاشتراك والترادف، فهما سر النجاعة التي تتصـــف بها الألسنة البشرية [3] فكيف يمكـــن أن تحصر اللغة في وظيفتها البيانية، وأن تحصر هذه الأخيرة في تمييز الوحدات الصوتيـــة وحدها بين المعاني ؟

---

(١) وذلك كالجرس الخاص بصوت شخص معين والنغمات الدالة على حالة نفسية معينة وغير ذلك.

(٢) ويقول مثل هذا النحاة الذين عرفوا منطق أرسطو وأولهم في التاريخ هو أبو بكر بن السراج إلا الرماني كما يقال ). قال في كتابه الموسوم بكتاب الاشتقاق: " الذي يوجبه النظر على واضع كل لغة أن يخص كل لفظ بمعنى لأن الأسماء إنما جعلت لتدل على المعاني فحقها أن تختلف باختلاف المعاني (٢١).

(٣) وهذا له علاقة باعتباطية اللغة ولولا ذلك للصق كل كلمة بمعناها الأصلي ولما استطاعت اللغة أن تعبر عـــن المسميات والمعاني الطارئة بل التصورات التي تحدث بعد في أذهان الناس. ومن المعروف أن اللسان البشري قادر أن يعبر عما لا وجود له حسا وعلا.

وقد بالغ الوظيفيون في قصر اهتمامهم على الوظيفة التمييزية لـــذوات الألفـــاظ وحدها، حتى جعلوا بنية اللغـــــة كلـــها متوقفة عليها، ومتولدة عنها، وهذا مـــا يخالفهم فيه الكثير من العلماء حتى مـــن البنويين . ولهذا الموقف الوظيفي المغـــالي ومواقف أخرى مهمة ســـنراها تبعـــات خطيرة : منها النظرة التأملية غير الإجرائية التي امتازت بها البنوية ومنها التخليط بـين الوضع والاستعمال، أي بين اللغة كنظـام وبنية وبين استعمال الناطقين لها في واقـع الخطاب .

وأما البنويون الأمريكيـــون فـــإنهم لا يلجؤون أبدا إلى مفهوم الوظيفة لتحديـــد الوحدات اللغوية، ولا إلى المعنى للتميـــيز بين الوحدات الصوتية كأجناس ومختلـف تأدياتها ( allophones) كما سنراه [1] أمـــا موقف النجاة العرب مـــن الإفـــادة أو التبليغ فإنهم كانوا شديدي العناية بهـــا إلا أنهم جعلوا لها، كعامل تفسير،ثلاثة ميادين:

الخطاب ( أو ما يسمى بدورة التخاطب ) يحاولون فيه مثلاً أن يفسروا دور الألفـاظ المسماة بالمبهمة : أسماء الإشارة والضمائر والظروف (هي Shifters عند Jackobson) وهو شيء عظيم ( أكثره يوجد في شروح كتاب سيبويه وشروح أخرى مهمة ).

**والثاني:** هو ميدان البلاغة، ولا ســيما في علم المعاني.

**والثالث:** هو ميدان تفسير الشواذ عـــن القياس .

هذا و لم يحاولوا أن يفسروا آليات تفريـــع البنى من أصولها، وبالتالي تفسير كيفيـــة تولدها باللجوء إلي هذه الوظيفة .

-الوضع والاستعمال عند البنويين وعنـــد النحاة العرب :

يدعي الوصفيون البنويون بأن بنية اللغـــة تنحصر في نظـــام خاص تنتظـــم فيـــه عناصر اللغة في كل واحد من مستوياتها بحسب تمايز كل عنصر عـــن العنـــاصر الأخرى.فهو إذن نظام تمايزي أو تقابلي[2]

**الأول:** هو مجموع الظواهر المتعلقة بإجراء محض ( Oppositional system ). وهـــذا

(١) ما يسميه بلومفيلد " Fonction "ليس هو الوظيفة إطلاقا بل هو ما يسميه أتباعه بالـ Distribution انظـــر فيما يلي.

(٢) التقابل هنا هو مجرد التمايز، وليس هو التقابل الرياضي الذي هو تناظر.

يقتضي أن يكون كل عنصر مندرجًا في فئة يتميز فيها عن أفرادها بميزات خاصة ( Features)،وكل فئة تندرج في فئة أوسع تتميز فيها عن غيرها بميزات أخرى، وهكذا حتى نصل إلى الجنس العام الذي يشملها كلها فى مستواها.ولنأخذ مثال: الوحدات الصوتية [1] في اللغة العربية ، بل فئة منها تسمى الشفوية، فيمكن أن يرسم نظامها التمايزي على شكل شجرة كالتالي[2] :

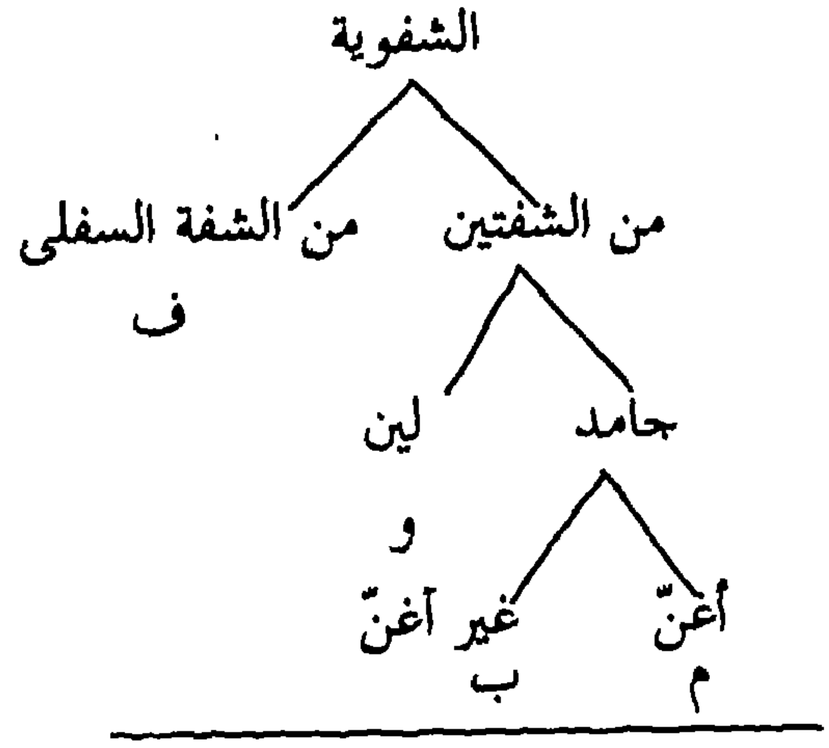


فهذا النظام التمايزى الجزئي هو عند هم بنية وتندرج بدورها في نظام تمايزي أوسع هو بنية المستوى الصوتي العربي . ولكونهم يقصرون البنية على النظام الاندراجي الانتمائى فإنهم لا يحددون هوية العناصر إلا بانتمائها إلى فئة معينة، وبالتالي يكون التحديد عندهم بالجنس والفصل فقط كما هو عند أرسطو تمامًا [3] فالفونيم – أو الوحدة الصوتية – هو مجموعة من الصفات المميزة كما يقولون. فالنظام كله وليد الوظيفة التمييزية .

أما المستوى الأعلى الخاص بالجملة فإن للبنوية الأمريكية المسماة بالاستغراقية أو القرائنية [4] طريقة خاصة أرقى كثيرًا من طريقة الأوربيين بالنسبة لهذا المستوى. يحاول أصحابها أن يكتشفوا بها بنية الجملة وهي كالتالي :

(١) هي التي يسميها العرب الحروف ( وهذه الكلمة تدل على هذه الوحدات ورموزها الخطية بحسب السياق ) وهي غير الأصوات في ذاتها لأن الحرف الواحد قد ينطق بكيفيات مختلفة بحسب التنوع الإقليمي أو تأثير الجوار كالجيم العربية مثلا وأنواع هذه الجيمات هي الـ (Variants أو allophones).

(٢) أو على شكل أقواس متداخلة [ م/ب] و/ف أو شكل دوائر رياضية وغير ذلك .

(٣)التحليل التصنيفي إلى أجناس وأنواع متداخلة هو شيء معمول به في كل علم، وخاصة في علمي الحيوان والنبات، إلا أنه لا يكتفي بذلك العلماء في اكتشاف أسرار الكائنات .

(٤) Distributionalism ويترجم بعضهم هذه الكلمة بالتوزيعية مع أن معنى Distribution هنا ليس هو التوزيع، بل مجموع القرائن التي يمكن أن يقترن بها عنصر لغوي في الكلام. ( ويريد اللغويون الأمريكيون أن تحدد العناصر باستغراق جميع ما يمكن أن يحيط بها ) .

يبحث اللغوي الأمـــــريكي في الجملـــة التامة عن مكوناتها الكبرى، ثم يبحـــث في كل مكون منها عن مكوناته، وهكـــذا بالتدريج حتى يصل إلى المكونات الصغرى التي لا تقبل التحليل في مستوى العنـــاصر الدالة ( المورفيمات ). أما على أي مقياس يجزّئ هذه الأشياء إلى مكوناتها القريبـــة ( Constituents Immediat )فهو المقيـــاس الذي لا خلاف فيه المعروف عند جميـــع اللغويين من أقدم العصور إلى زماننا، وهو مقيـــاس الاســـتبدال ( permutation أو Commutation ) أي إمكانية إقامة وحدة لغوية بل وحدات مقام قطعة من الكـلام، لا يعرف هل هي وحـــدة أم لا وذلـــك كدليل على تكافئهما وبالتالي علـــى أن الشيء المُقام مَقام الشيء بما أنه وحـــدة دالة، فهمـــا إذن من قبيل واحد تمامًا. إلا أن الطريقة الأمريكية تشترط هنا – وهـو شيء جديد – أن تكون الوحدة المُقامـــة أصغر ما يمكن حتى يكون ذلك دليلاً على أن الجزء من الجملة، أو من كل المكوّنات التي تحتها هو ، حقيقة، المكوّن القريب لها أي المباشر [1]. وقد رسم هذه العمليـــات التحزئية المتدرجة اللغـــوي الأمريكـــي هوكت فمثّلها على شكل عُلَب(Boxes). فالجملة الإنجليزية : The boy opened his bag يمكن أن ترسم بنيتها حسب البنوية الأمريكية هكذا :

(٢)

| | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| The | Boy | Opened | | His | Bag | 1 |
| | Boy | Opened | | His | hag | 2 |
| | | Opened | | His | Bag | 3 |
| | | Open | Ed | His | Bag | 4 |
| The | Boy | Open | Ed | His | Bag | 5 |

ويمكن أن يرسم هذا على شكل شـــجرة كما يفعله تشومسكي :

---

(١) شرح ذلك اللغوي الأمريكي ولس ( Wells ) في مقالة لـــه نشـــرها في مجلـــة ( Languages 23 (١٩٤٥) ص١-١١).

(٢) يلاحظ الباحث أنه يوجد في المدونة التي دونها ( السماع عند العرب ) جملة مثل John openedوليس فيه إلا وحدتان فيبحث عما يكون مكافئًا منهما ( Expansion) للأول ثم للثاني، وبذلك يستدل على أن the boy ثم opened his bagهما المكونان القريبان للجملة. أما المكون الأول فإنه مكافئ لـ That boyو الثاني مكافئ لـ open the door وهكذا حتى يصل إلى أصغر المكونات، ويكشف عن بنية الجملة (كما يتصورونها ) في الوقـــت نفسه أي بفضل التحليل على درجات .

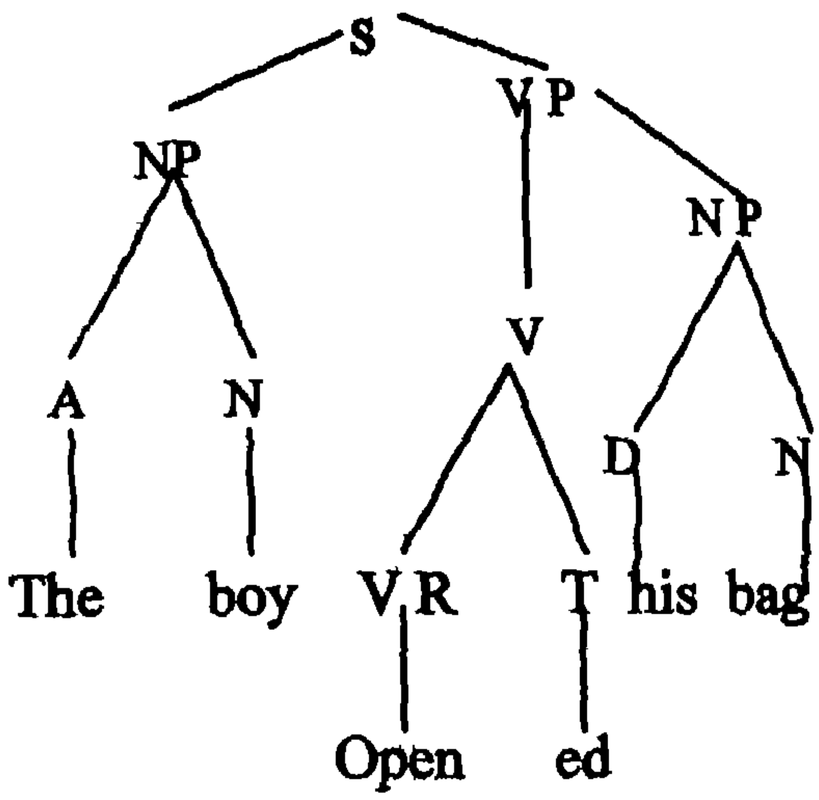


فهذه الرسوم تمثل عند البنويين الأمريكيين بنية هذه الجملة. والشجرة هي أمثل صورة لما قد سبق أن لاحظناه في مستوى الحروف ( الحروف الشفوية) وهو الشكل الاندراجي المتداخل . وهذا الشكل ينطبق على كل ما يسميه البنويون Structure حتى عند تشومسكي الذي تبنى التحليل إلى مكونات قريبة، وإن كان قد بين قصور هذا التحليل فصاغة من أجل ذلك صياغة منطقية [1] النظرية التوليدية ) وحاول أن يصلح هذا النقص بإضافة مفهوم التحويل وكان ذلك حادثًا حاسمًا في اللسانيات الغربية .

## البنية عند العلماء العرب : الوضع والاستعمال عندهم

تختلف نظرة النحاة واللغويين القدامى العرب إلى اللغة عن نظرة البنويين لها في زماننا اختلافا جوهريًا في عدة نقاط. فلئن كان يهتم كل طرف منهما بالنظام الداخلي للغة وما تقوم به اللغة من دور في الإفادة فإن النحاة الأولين قد ميزوا جيدًا بين كل ما هو راجع إلى الوضع من جهة أي ما يخص اللفظ الموضوع للدلالة على معنى وهذا المعنى المدلول عليه باللفظ وحده، ومن ثم ما يخص بنية هذا اللفظ بقطع النظر عما يؤديه في واقع الخطاب ( أي في حال من أحوال الخطاب الملموسة) ومن جهة أخرى ما هو راجع إلى استعمال هذا اللفظ أي إلى تأديته للمعاني المقصودة بالفعل وهي الأغراض[2]. وأكبر دليل على ذلك هو استنباطهم أولاً لبنى الكلم والكلام بمناهج خاصة وما تدل عليه في الوضع ثم التفاتهم، بعد ذلك، إلى ما تصاب هذه

(١) التحليل للغة هو الذي يصاغ هذه الصياغة لا اللغة نفسها كما قد يتصوره بعضهم .

((٢)فالأول يسميه اللغوي الفرنسي Benvenis-te الذي أدرك هذا الفرق جيدًا ( وكذلك مواطنه J. Gagnepain ليس إلا ) Sémiologiq-ue ويسمى الجانب الآخر بـ Sémantique ( انظر مقاله: -

البنى من التغيير في الاستعمال بـــالحذف والقلب وإبدال وحدة بوحدة أخرى وغير ذلك وما يصاب به المعنى الوضعي مـــن التغيير بسبب الاستعمال الذي يتصـــرف فيه الناطق بالمجاز والاستعارة والكنايـــة، وغير ذلك . والدلالة في هذه الظواهر هي دلالة المعنى ( معنى عند الجرجاني ). فـــلا يخلطون بين الدلالة الوضعية وبين غيرهـــا كدلالة الحال ودلالة المعـــنى هـــذه ( أو العقلية ) في تحديدهم لبنى اللغة وكل مـــا يرجع إلى الوضع .

أما كيف يستنبطون البُنى دون أن يلجؤوا إلى ظواهر التبليغ ( وما البلاغة إلا النظـــر في ظواهـــر التبليغ الناجع لا في بُنى اللغـــة في ذاتها) فان ذلك أساسه كلُّه البحث عن " الجامع " أي عما يجمع بين أفراد الجنس الواحد ، بالاعتماد ليس علـــى صفاتهـــا المميزة فقط التي تجعلها تندرج في هـــذا الجنس، وإنما بالنظر في هيئتها وزنتـــها. فكل هذه الأفراد التي تجمعها هيئتها تكوّن عندهم بابًا وهي نظائر بعضها إزاء بعض؛ لأنه يوجد فيما بينها تناظر لا مجرد تشابه، إذ قد تختلف بعضها عن بعض اختلافًـــا شديدًا . وكلما اختلفت أكثر كان الجامع بينها – إن وُجد – أعمق والبحث عنـــه أقرب إلى المنهج العلمي كمـــا يتصـــوره علماء الفيزياء والأحياء في عصرنا هـــذا . ويلجؤون في ذلك إلى " حمل" هذه الأفراد بعضها على بعض ، وذلك بجعل كل جزء منها إزاء الجزء الذي يقابلـــه في المرتبـــة ويعتمدون هنا ، مثل البنوية ، على مقياس التكافؤ وهو صلاحية قيام الشيء مقـــام الشيء (الاستبدال في الاصطلاح اللســـاني الحديث ). إلا أن البنوية تريد بذلـــك أن تعرف عن الجزء من الكلام،هل هو وحدة قائمة بنفسها ( مورفنيم أو فونيم كل في

---

– Sémiologie de la langue, probl. De ling. Générale, 1974 وقد وضح ذلك جيدًا عبد القـــاهر الجرجاني قبلهما بقرون. وكل ذلك قد سبق إليه الخليل وسيبويه ولا يمكن أن تفهم أقوالهما في ميدان الدلالات إلا بتدبر ما قاله شراحهما أولا وتلميذ هؤلاء وهو عبد القاهر ( وقبله ابن جنى أيضًا ) (انظر كلام سيبويه . مثـلاً في دلالات الفعل اللفظية والعقلية ( ١/١٥). لابد من الالتفات إلى أن هذين العالمين هما من علماء اللسانيات وليســا من المتخصصين في اللغة العربية. أما تشومسكي فهو كذلك إلا أن له اطلاعًا عميقًا على النحو العبري الذي حرر في القرون الوسطى بعد ظهور كتاب سيبويه .

مستواه ) وبالتالي ما هو جنسه [1]. أمـــا النحاة العرب فيريدون أن يكشفوا ليـــس عن هوية الجزء وجنسه فقط وإنمـــا عـــن مكانته ودوره في المجموعة مـــن أجـــزاء العبارة التي ينحصر فيها ، فبذلك تتحـــدد هويته ليس بإدراجه في فئة بسيطة فقـــط وإنما ببنائه ، أو بتركيبه في مجموعة مرتبة ، لكل جزء منها موضع خاص يؤدى فيـــه عملاً وضعيًّا خاصًّا [2] وهذه المجموعة بهذا المعنى الرياضي هي ما يسمونه بابًا وحـدًّا وقياسًا،ورسمُه وتمثيلهُ يســـمى عندهـــم مثالا.ولكل مستوى من مستويات اللغـــة حدود خاصة به. لتأخذ مثـــلاً مســـتوى الكلم المتمكنة فحدودها ومثلها في هـــذا المستوى هو من قبيل البناء، ويعنون بذلك أن أجـــزاءها مبنية بعضها على بعـــض على مثال معين بحيث لا يمكن أن تحـــذف إلا بتلاشي الكلمة كلها. ويمكن أن تصور هذه العمليات الحملية في هذا المستـــوى

هكذا : أ = مكتب ⇔ ب = ملعـب ⇔ مجلس المثال الجامع = مفعل

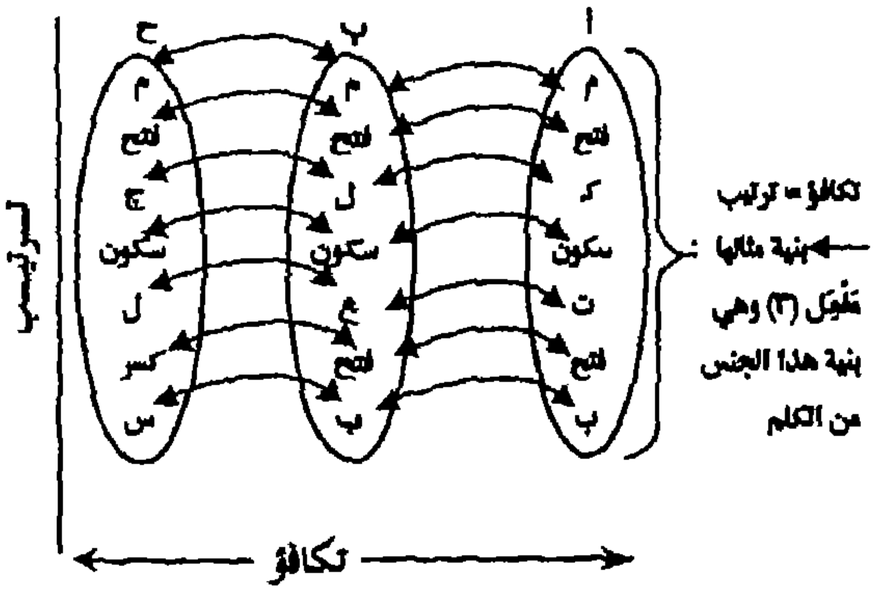


فالقياس والحد هنا ناتج عن انتماء كل من " مكتب " و"ملعـــب " و"مجلـــس " إلى جنس واحد هو اسم المكان الثلاثـــي، وفي الوقت نفسه من تواجد عنـــاصر علـــى ترتيب معّين في كل واحد منـــها ولـــولا الترتيب المعين لما كان هناك قياس أوحد . ويؤدى هذا الحمل إلى تجريد ريـــاضي لا يكتفي فيه بتجريد الصفـــات المشـــتركة الذي ينتج عنه الجنس ( الفئة البســـيطة ) بل إلى بنية مجردة وهي مثال الكلمة،وتمثل فيها المتغيّرات برموز [3] ( ف / ع / ل)

---

(١) وفي الوقت نفسه تُدْرِجها في صنف من أصناف الوحدات ودليلها في ذلك هو فقـــط تكافؤهـــا في المحـــور الاستبدالي ( paradigmatic ) مه أجزاء أخرى سبق أن عرفت كوحدات.

(٢) بقطع النظر عما يمكن أن يؤديه مع المكوّنات الأخرى في الإفادة .

(٣) مثل الرموز الرياضية تمامًا ( الفاء تمثل أي حرف صامت من العربية في المرتبة الأولى وهكذا )

والثوابت بالبقاء على أصلها .

ويستنبط النحاة حدّ الاسم وحدّ الفعل ( أي الاسم والفعل بما يدخل على كل واحد منهما وهو مستوى [1] أعلى من الكلمة ) بحد آخر . والفرق بين هذا الحدّ وما يخص الكلمة المفردة في ذاتها هو وجود عناصر في داخله لا تُبنى بعضها على بعض بل هي موصولة فقط لأنها " تدخل على الاسم المفرد أو الفعل وتخرج " كما يقول الخليل وذلك مثل أداة التعريف وحرف الجر ( وقد و لم ولن بالنسبة للفعل )[2] . وهناك فرق كبير جدًّا بين التحليل البنوى والتحليل العربي . فالبنويون ينطقون في هذا المستوى من الجملة ويقطعونها بالاعتماد على مبدأ الاستبدال مورفيما بحسب تسلسل الكلام[3] أو بالتجزئة إلى مكونات متداخلة كما هو الشأن عند الأمريكيين . أما العرب فينطقون من " أقل ما يتكلم به مفردًا " على حد تعبيرهم وهو العنصر الذي يمكن أن ينفرد في الكلام وبذلك يتأكد الباحث أنه وحدة من وحدات اللغة ( مع أنه كلام مفيد ) مثل "كتاب " في جواب " ما هذا " ؟ ثم ينظر ما هي العناصر التي تستطيع أن تدخل عليه يمينًا وشمالاً ولا تغيره عن كونه اسمًا واحدًا. فبهذه الزيادات المتتابعة يتحدد موضع كل عنصر طارئ وما يؤديه فيه، وبمجموع هذه المواضع المرتبة تكوّن حدّ الاسم اللفظي (أي الصوري) لا كمفردة بل" كمجموعة تدخل عليه لوازمها وتخرج". وقد اصطلحنا على

(١) هذا المستوى لم يتفطن له إلا J.Gagnepai-n الذي أشرنا إليه. وقد تنبه اللغويون الأمريكيون إلى أن الجملة ليست ناتجة عن تركيب مورفيمات بل عن تركيب مجموعات تحتوى على مورفيمات ولكنهم لم يحددوا مُثلها كما فعله العرب .

(٢) ومثل " مقام " فيتضح بالحمل المشار إليه وبالرجوع إلى أصلها أن الواو قد قلبت حرف مد، فيبحثون عندئذٍ عن العلة أي عما صده عن وجهه على حد تعبير الخليل وغالبًا ما يلجؤون في التعليل إلى ظاهرتي الاقتصاد والفرق أو طرد الباب وغير ذلك . ولا أدري لماذا يريد بعضهم أن تكون هذه العلل هي علل أرسطو الأربعة. وكذلك القياس النحوي فهو أبعد شيء عن السلوجسموس.

(٣) التحليل التسلسلي عند الوظيفيين دليل على تخليطهم في منهجهم بين الكلام parole وبين اللسان Langue على الرغم من أنهم من أتباع سوسور. أما اعتبار جميع البنويين الوحدات الدالة ( المورفيمات) كلها كقطع صوتية فهو أيضًا من هذا القبيل مع تفطنهم لوجود النبر وإلى أن للترتيب دلالة في جميع المستويات فهذا الذي سميناه Linearism و Segmentalism هما طاغيان في البنوية إلا في الاستغراقية الأمريكية بالنسبة إلى الأول أو في تحليلهم إلى مكونات غربية ( وكذلك عند اللغوي الفرنسي Tesnière ) .

تسميتها "لفظة" (اسمية أو فعلية) لإطلاق الرضى " اللفظة" على ما هو فوق الكلمة وتحت الكلام مباشرة .

أما مستوى الكلام (أو التركيب) فيبحث هاهنا أيضًا عن المثال المجرد الذي ينبني عليه أقل الكلام المركب، وذلك بحمل كلام على آخر من جنسه (واجب وغير ذلك [1]. ومعنى ذلك أهم ينطلقون هنا أيضا من أقل ما يمكن أن يتكلم به لكن فيما هو فوق الاسم كما حددناه) . وذلك مثل:"زيد منطلق"وقام عبد الله."[2] وينظر ما هي العناصر التي يمكن أن تدخل على ذلك دون أن تخرجه عن كونه كلامًا واحدًا . وذلك مثل :

| ١ | 2 3 | 4 |
|---|---|---|
| ∅ | زيد منطلق | |
| | زيد منطلقًا | أمس |
| كان | زيدًا منطلق | |
| إن | زيدًا منطلقًا | |
| حسبت | | |
| ضرب | زيد عمرًا | |
| رأى | خالد عبد الله | وهو راكب |
| ضربـ | ت عمرا | ظلمًا |
| ضربـ | تـــه | أمس |

تكافؤ

ترتيب

فيلاحظ أن مجموعة (١) تحتوى على عنصرين يتحكم فيهما عنصر آخر لفظًا ومعنى، فيسمونه عاملاً وتفطنوا إلى أن العامل في هذا المستوى لا يتقدّم عليه أبدًا المعمول الأول. [3] ثم لاحظوا أن موضع العامل قد يكون فارغًا ويسمونه الابتداء،

---

(١) الواجب عند سيبويه هو المُثبت أما غير الواجب فكالاستفهام والشرط وغيرهما.

(٢) أما مثل " قمت " أو " ضربته " فهو في الوقت نفسه لفظة فعلية وكلام مفيد.

(٣) فإذا حصل أن قُدّم "زيد " على " قام " في مثل " قام زيد " تغيرت البنية والدليل على ذلك العمليات الحملية التالية :

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| قام | زيد | | | |
| ∅ | زيد | قام | ∅ | |
| ∅ | زيد | قام | | أنحوه ∅ علامة لفراغ الموضع من اللفظ كالابتداء والضمير المستتر) |

بهذا الحمل استدل على أن الرافع مختلف في العبارتين أي على اختلاف البنية ( المقتضب، ٤/١٢٨ )

وقد يكون كلمة مفردة مثل "كان" و"إن" وأخواتهما، وقد يكون لفظة (اسم وفعل ولوازمها ) وقد يكون تركيبًا كاملاً، مثل : " أعلمت خالدًا / زيدًا منطلقًا" . ثم لاحظوا أن عنصرًا رابعًا يمكن أن يُزاد إلا أنه موصول وليس مبنيًّا مع العناصر الثلاثة، وهو عنصر مخصص، ويدخل فيه المفعول فيه والمفعول لأجله والحال وغيرها. وبنية الجملة عندهم تتوقف أولاً على هذه الكيانات بهذه الصيغة، وثانيًا على ما يحتوى عليه كل كيان منها (مفردة تنتمي إلى فئة خاصة ككان وإن وغيرهما وما يترتب على ذلك من الأحكام) وثالثًا إلى ما تجيزه العربية من التقديم والتأخير.

نستنتج مما سبق أن غاية البحث عند البنويين هي اكتشاف الوحدات التي تتكون منها اللغة وذلك بتحديد هويتها التي ليست عندهم إلا صفاتها الذاتية ثم تصنيفها وهذا التصنيف يُبنى على التمايز المتدرج من الجنس الأعلى إلى ما تحته وهو عندهم بنية. ويحصل هذا خاصة في مستوى الوحدات الصوتية [1].أما ما فوقه فيحاولون فيه اكتشاف الوحدات الدالة بتحليل الكلام التحليل التقطيعي الاستبدالي إما بحسب تسلسل الكلام[2] كما عند الوظيفيين وإما بكيفية سلمية كما عند الأمريكيين [3].

والجدير بالملاحظة هو أن جميع البنويين لكونهم لا يريدون أن يتحاوزوا الوصف [4]

---

(١) ولهذا الحصر أكثر كلامهم في القنولوجية. ويتم الاكتشاف في هذا المستوى عندهم بإحصاء الحروف على محور الاستبدال، ثم استخراج صفاتها الذاتية بمنهج المقابلة بين ما يسمونه بـ Minimal pairs مثل Kill/Gill.

(٢) وبين تشومسكي ما لهذا التحليل التسلسلي من النقائص بصياغته على شكل سلاسل ماركوف ( انظر مقاله : Three Models for description of language, Readings in Math. Psych., 1965

(٣) وحاول هاريس شيخ تشومسكي وهو بنوى المذهب أن يعتمد في التحليل المؤدى إلى الوحدات على حصر قرائنها فقط .

(٤) لا شك أن البنويين ( الأوربيين خاصة ) تأثروا أيما تأثّر بمذهب الإيجابية ويوصف بالـ Positive ويقصد منه هذا النظر فيما هو واقع ثابت أو ما يمكن معاينته لا في الأشياء الخيالية والميتافيزيقية أي الإيجابي المحسوس. ومن معاني هذه الكلمة :" الوضعي " في مقابل الطبيعي ويطلق على القانون لأنه متواضع عليه وليس هذا هو المقصود هنا من كلمة Positive .

فقد قصروا بحثهم، في الحقيقة ،على محاولة اكتشاف الوحدات وتصنيفها كما تنبّـــه إلى ذلك تشومسكي فكأن دراسة اللغـــة كلها مقصورة على فكّ رمـــوز النـــص اللغوي [1] ويؤدى ذلك إلى العناية بـــدور المخاطب وحده وتجاهل أهم قطـــب في التخاطب وهو المتكلم. ولهـــذا حـــاول أصحاب النحو التوليدي التحويلـــي أن يعيدوا لســـلوك المتكلـــم أهميتـــه الـــتي يستحقها، وخاصة محاولة التفسير لأهـــم ميزة تمتاز بها اللغة، وهي قدرة المتكلـــم على التصرّف في بنى اللغة للتعبـــير عـــن أغراضه باســـتعمال البـــنى والأوضـــاع المتعارف عليها فقط في وضع لغته،وبالتالي العبارات التي تنتمـــي إلى تلـــك اللغـــة وحدها. وهذا هو الذي يسميه ســـيبويه بالمستقيم الحسن. ويدخل فيه ما يستعمله عامة الناطقين أو الكثير منهم سواء أوافق القياس أم لم يوافقه ( لأنه قد يكون قياسًا فرعيًّا قد طرأ وشاع ) فالمعيار إذن ليـــس هـــو القياس بـــل الأكـــثر والأعـــراف والضابط لهما هو هذا القياس إذا اطّـرد أو الشاذ عنه الذي شاع وكثر [2].

ويجب أن نتنبه إلى شيء مهم لم ينتبه إليـــه أصحاب المدرســـة التوليديـــة وهـــو أن التحليل البنوى هو من قبيـــل القســـمة الأفلاطونية وأهم صفة تتصف بها هـــذه القسمة هي انـــدراج شـــيء في شـــيء ( Inclusion ) بينما التحليل العربي هو من قبيل القسمة التركيبية وهو إجراء شـــيء على شيء طرداً وعكسًـــا (Bijection) . والقياس النحوي العربي جوهـــره هـــذا الإجراء ولا طرد ولا انعكاس في القســـمة الأفلاطونية ؛ ولذلك فالقياس العربي أرقى كثيرًا لأنه يكوّن دائمًا مـــا يســـمى في الرياضيات الحديثة زمرة ( Group ). وكل

---

(١ ) أما الأمريكيون فكان لهم عذر وهو عدم فهم اللغوي منهم لجميع لغات الهنود الحمر .

(٢) وما أكثر ما يحصل من التخليط في زماننا بين المعيار والقياس ، ثم بين أنواع من الشذوذ مع أن ابن جنى وقبلـــه أبو علي والرماني وابن السراج قد بيّنوا كل ذلك جيدا كالشاذ عن القياس وهو كثير في الاســـتعمال والشـــاذ في الاستعمال وهو القليل والشاذ في الرواية لأنه رواه واحد أو غير ثقة أو خالف جميع الرواة مع أنه شاذ في القيـــاس . كما أنه ينبغي أن نميِّز بين كثرة الشيء ( أو قلته ) في بابه وكثرته في ذاته أي شيوعه الجغرافي كما رأينا .

المنطق الأرسطوطاليسى مبني علـــى مـــا تتصف به هذه القسمة الأفلاطونية : حدّه وقياسه [1].

وأما مفهوم التحويل فلا تعرفـــه البنويـــة ( باستثناء هاريس وهو شاذ ) وقد وفـــق تشكومســـكي في إحيائـــه وإدخالـــه في النظرية اللغوية غير أنه لم يجعله الأساس في كل شيء كما هو عند النحـــاة العـــرب الأولين؛ وذلك لأن إجراء الشيء علـــى الشيء هو عين التحويل بمـــا أن المحـــول والمحول إليه متكافئان؛ فالتحويل ( مـــع عكسه ) من وجهة نظر المنطق ( الرياضي الحديث ) تكافؤ غير اندراجي وهو هـــذا الذي يحصل عليه بالقياس (أما الانـــدراج فلا يحصل به هذا التكافؤ). ثم التحويـــل عند العرب تحويلان : هذا الذي يبحث به عن تكافؤ البنى ( توافق البناء عند العرب) وهو الأهم.

وتحويل تفسر به الشواذ عن القياس . وهو السلسلة من التحويلات التي يتوصل بمـــا من الأصل الذي كان ينبغي أن تكـــون عليه هذه الشواذ إلى الصورة المســـتعملة التي هي عليه أي بين صيغة مقدرة وبـــين الصيغ الموجودة بالفعل في الاستعمال [2] وفي كلا الحالين يوجد أصل وفـــرع( أو فروع ) . أما الأصل الذي هو منطلق كل تحويل فيقول عنه العرب:إنه " ما يُبنى عليه ولا يُبنى هو على غيره " أو " ما يفـــرع عليه الفروع " . [3] فالبناء هنا أو التفريـع هو العملية التحويلية . ويمكن أن نقـــول على إثر ما قالوه: إن الأصل هو الشـــيء الثابت المستمر لأنه يوجد في جميع فروعه

---

(١) فكيف يجوز لنا أن نجعل من المفاهيم النحوية العربية التي هي نتيجة لهذا النوع من التحليل الإجرائي مفـــاهيم يونانية ؟

(٢) وهو الذي ظهر عند تشومسكي في النظرية النمطية ويربط بين البنية العميقة ( المقدرة ) والبنية السطحية إلا أن ذلك ينطبق في هذه النظرية على كل تحويل بخلاف النحو .

(٣) وقد يقترب منه النحو التحويلي إلا أنه يجعل من البنية الاندراجية المنطلق للتحويلات على حين يجعـــل العرب الأصل المنطلق منه أبسط الوحدات و"أقل ما يتكلم به مفرداً "والفرق كبير جدًّا إذ مجموعة التحويلات هي الـــتي تولد الوحدات نفسها بإحلالها مواضعها من البنية الجامعة .

مع زيادة، ولذلك لا علامة له بالنسبة لفروعه؛ فهي تحتاج إلى علامة مثل المذكر بالنسبة إلى المؤنث، والمفرد بالنسبة إلى المثنى والجمع، والمبتدأ أو الخبر بالنسبة إلى الجملة التي تحتوي على زوائد عليهما، والمضارع بالنسبة إلى الماضي وغير ذلك، وهكذا نلاحظ أن الوحدات اللغوية والبنى التي تدخل فيها " تولدها، عند العرب" التحويلات نفسها بل المجموعات من التحويلات هي نفسها بنى بسبب ترتيبها[1] .

عبد الرحمن الحاج صالح
عضو المجمع المراسل
من الجزائر

(١) ينبغي أن نميز بين هذا النحو العلمي الذي يكثر فيه التجريد والتحليل والنحو التعليمي الذي لا يراد منه إلا الاستعانة به على تحصيل الملكة اللغوية إلا أن هذا النحو هو نتيجة عن استثمار ما حققه النحو العلمي من جهة، وعلم تدريس اللغات من جهة أخرى.